الكوارث الطبيعية وأثرها على ذهنيات العامة في إقليم ما وراء النهر في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي

د/ دعاء عبد الرحمن علي محمد مصطفى
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
كلية الآداب والفنون
جامعة حائل المملكة العربية السعودية

ملخص:

إن موضوع دراسة الكوارث الطبيعية ورصد أثرها على التحولات الذهنية للإنسان من الموضوعات الهامة لدراسة جوانب من التاريخ الاجتماعي للشعوب، ذلك للعلاقة الوثيقة بين ما لدى الشخص من موروث فكري و ديني و اجتماعي ومدى تأثره بتلك الكوارث سلبا أو إيجابا ، وما تتركه تلك الكوارث من اثر على الناس فتطرحهم يمينا أحيانا أو تسير بهم يسارا في أحيان أخرى وما ينتج عن ذلك من تأثيرات تظهر في صور متعددة منها المقبول ومنها ما هو غير ذلك ، مما يتضح في سلوك الفرد وما يتكون لديه من أفكار جديدة ، ثم مدى تقبل المجتمع لها وتعامله معها وذلك من خلال رصد لأهم الكوارث الطبيعية التي ألمت بمنطقة من أهم مناطق العالم الإسلامي ،كثيرا ما ذكرت في كتب الرحالة والجغرافيين بأنها - أرض خير ونماء كثيرة المزروعات ، مليئة بالخيرات ، عامرة الأسواق، وافرة التجارات - هي منطقة "إقليم ما وراء النهر" ذلك الإقليم الذي كثيرا ما تعرض لكوارث طبيعية تركت أثارها على سكانه ليس فقط اقتصاديا وإنما ذهنيا وبالتالي اجتماعيا، في فترة القرن الخامس الهجري / الحادي عشر

الميلادي الذي كان من أكثر الفترات التي شهدت نزول تلك الكوارث الطبيعية بالإقليم.

الكلمات المفتاحية: الكوارث الطبيعية ؛ إقليم ما وراء النهر؛ السحر والتنجيم ؛ الزهد والتصوف ؛ الأوبئة.

Abstract:

The subject of studying natural disasters and monitoring their impact on human intellectual transformations is an important subject to study aspects of the social history of peoples. This is because of the close relationship between the intellectual, religious and social heritage of a person and the extent of his or her negative impact on them. To the people and sometimes left them or walking them left at other times and the resulting effects that appear in multiple images, including acceptable ones, etc., which is evident in the behavior of the individual and the new beliefs, and then the extent of community acceptance and dealing with it By monitoring the most important natural disasters in one of the most important parts of the Muslim world, it is often mentioned in the books of travelers and geographers that it is a land of good growth and many plantations, full of good things, abundant in markets - the region beyond the river, Which was left not only economically, but intellectually and socially, during the fifth century AH / 11th century, which was one of the most experienced periods of natural disasters.

Keywords: Natural disasters ؛ the province beyond the river ؛ magic and Astrology ؛ asceticism and mysticism ؛ epidemics

مقدمة

جعل الخالق سبحانه وتعالى من الكوارث وأحداثها وآثارها المدمرة عبرة وتذكرة للإنسان حيث دفعت نتائج وآثار الكوارث الطبيعية مسيرة الإنسان إلى منهج اجتماعي وإنمائي كان ولازال المحور الأساسي لتكوين التجمعات الإنسانية التي انتهت إلى قيام الشعوب والقوميات المختلفة في أنحاء العالم . وكان للإنسان عبر التاريخ اجتهاداته في التخفيف من حدة آثار الكوارث الطبيعية، منها على سبيل المثال ما حفظته لنا مدونة حمورابي عام ٩٥٠ ق.م عن ابتكارات الحضارة البابلية في رصد الكوارث الطبيعية وأساليب التنبؤ لفيضانات نهري دجلة والفرات ، تلك الاجتهادات التي تمثل النواة التي بني عليها علم المائيات الحديث مثلا.

أي أن محاولات الإنسان لدرء أو تجنب مخاطر تلك الكوارث الطبيعية ضاربة في التاريخ متنوعة الأساليب والتي غالبا ما تظهر وتعكس المخزون الذهني والعقائدي لدى الإنسان ومدى قدرته على تقبل تلك الحوادث الطارئة أحيانا والتي قد تتسم بالديمومة أحيانا أخرى . وإن كان لابد لنا أن نعترف بأن الكارثة لها خصائص ترتبط بعنصر المفاجئة والتهديد وضيق الوقت مما قد يؤدي إلى تخبط الإنسان وعدم قدرته على تحمل أثارها ذهنيا واجتماعيا ، مما قد يؤدي إلى تطرف ذهني وسلوكي معين ، وهذا ما سنحاول التصدي له في هذا البحث الذي يرصد الكوارث الطبيعية التي ألمت بإقليم ما وراء النهر في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وكيف كان أثرها على ذهنيات عامة الناس في الإقليم ،خاصة وأن تلك الكوارث قد حولت حياة الناس من رغد في العيش إلى مأساة حقيقية، نتيجة لما يصاحبها من أزمات اقتصادية ومجاعات وأوبئة ، مما كان سببا في أن يحاول كل شخص أن يتخلص من أثارها أو يتجنب حدوثها مرة أخرى بطرق مختلفة ، فنرى من

اتجه إلى السحر والكهانة والتنبؤ بالغيب ومنهم من اتجه إلى الانعزال والزهد والتصوف ومنهم من وقع فريسة في شباك فرقة الإسماعيلية وهو يبحث عن سبيل للخروج من تلك المحن .

وفي نفس الوقت نحاول رصد دور السلطات الحاكمة للإقليم في تلك الفترة وهي سلطة سلاطين السلاجقة وما قدمته من مساعدات للناس للتغلب على تلك الكوارث . وذلك من خلال المنهج التاريخي القائم على القراءة و البحث والاستنتاج معتمدا على ما توفر من مصادر ومراجع تناولت تلك الفترة بالذكر سواء أكانت التاريخية منها أو كتب النوازل والحسبة أو كتب الرحالة والجغرافيين الذين زاروا المنطقة في تلك الفترة كما تم الاعتماد على بعض المصادر الفارسية منها المترجم ومنها ما لم تتناوله أقلام المترجمين، وعلى ذلك يتناول البحث المحاور التالية;

1. التعريف الجغرافي لإقليم ما وراء النهر.
2. التعريف اللغوي للكوارث الطبيعية.
3. رصد لأهم الكوارث الطبيعية في الإقليم خلال فترة البحث.
4. الانخراط في صفوف الزهاد والمتصوفة.
5. الانضمام إلى دعوة الإسماعيلية.
6. التعبير بالأمثال والشعر.
7. انتشار السحر والتنجيم كوسيلة للتصدي لتلك الكوارث.
8. ظهور مفهوم التضامن والترابط الاجتماعي بصورة أوضح.
9. الخاتمة.

أولاً : التعريف الجغرافي لإقليم ما وراء النهر:

يقول الحموي [1] في معجم البلدان عن بلاد ما وراء النهر "...يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام سموه ما وراء النهر، وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم ، وخوارزم ليست من خراسان إنما هي إقليم برأسه ...".

وكانت بلاد ما وراء النهر تعرف في الماضي ببلاد تركستان الكبرى، وعندما فتحها المسلمون العرب في القرن الأول الهجري أطلقوا عليها "بلاد ما وراء النهر" ومعناها البلاد الواقعة خلف نهر جيحون (أمودريا) و سيحون (سيردريا) [2]وهي منطقة شاسعة عظيمة الاتساع ، تمتد من تركيا غربًا حتى حدود الصين شرقاً، وقد باتت مقسمة إلى تركستان الشرقية وتركستان الغربية . و يعتبر إقليم ما وراء النهر أو آسيا الوسطى أو بلاد التركستان أو ما يتعارف عليه اليوم بالجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق ، من أهم أقاليم العالم الإسلامي ، فقد مثل هذا الإقليم أحد الروافد التجارية الهامة للعالم كله بوقوعه على أهم طريق تجارى آنذاك وهو طريق الحرير العظيم الذي كان يحمل تجارات الشرق كله من الصين مرورا بما وراء النهر حتى خراسان و العراق وأوربا والهند وغيرها.[3]

ولقد كان هذا الإقليم مصدر اهتمام المسلمين منذ بداية موجة الفتوحات الإسلامية ، فبعد فتح خراسان واستتباب أقدام العرب المسلمين فيها، اتخذوها ثغرا لتنطلق منه الفتوحات الإسلامية إلى ما وراء النهر، فقد وصلت أقدام المسلمين بفتوحاتهم على يد القائد المسلم الشهير قتيبه بن مسلم الباهلي حدود الصين بعد فتحهم لإقليم ما وراء النهر، ثم أكمل بنو أميه دورهم في نشر الإسلام في هذه البلاد ، ثم ورث العباسيون هذه البلاد بل كانت معقلا لدولتهم ودعوتهم.[4]

وزاد اهتمام العرب بها نظرا لثرائها العلمي والثقافي وعندما ضعفت الدولة العباسية وازداد نفوذ الأتراك فيها وظهرت الدويلات المستقلة انفصلت هذه البلاد عن الخلافة اسمياً لتقع تحت سيطرة عدة دويلات حافظت عليها وتوسعت في بلاد الترك الشرقية، منها الدولة الطاهرية، و الصفارية، والسامانية والتي اتخذت من بخارى وسمرقند - أهم مدن هذا الإقليم- عواصم لها، ثم سيطر الغزنويين على الإقليم إلى أن انتزعها منهم الأتراك السلاجقة فيما بعد، في بدايات القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. ويشمل إقليم ما وراء النهر ستة أقاليم رئيسية وهى الصغد، خوارزم ،الختل، أشروسنة، فرغانة والشاش. (5)

وأقرب أقاليم الدولة الإسلامية لبلاد ما وراء النهر هو إقليم خراسان وتمثل خراسان جزءًا مهما من البلاد الإسلامية ، وهي تشمل الأرض المحصورة بين نهر جيحون شمالاً، و سجستان وجبال الهندوكوش الهندية جنوبا ، ويحدها من الغرب المفازة و قوهستان فاصلة بينها وبين إقليم فارس، ومن الشرق صحراء الصين و البامير و سجستان ، ومن الشمال الغربي طبرستان و جرجان وخوارزم (6)ولا يمكن التوسع بأرض خراسان لتشمل بلاد ما وراء نهر جيحون إلا بالنظر إلى واقع الإدارة السياسي، حيث كان الوالي المسلم يدير في أحيان كثيرة شؤون عدد من الأقاليم من مرو العاصمة الخراسانية. (7)

ومع أن سجستان و قوهستان و بلاد ما وراء النهر وغيرها من الأقاليم المشرقية قد أديرت سياسيا من قبل إحدى عواصم خراسان في عهد كثير من الولاة الأمويين ومن بعدهم العباسيين ، فإن صلة بلاد ما وراء النهر بخراسان ظلت هي الأقوى، وما ذاك إلا لكون أراضي هذين الإقليمين إنما هي امتداد لبعضها، وبدون حاجز يذكر سوى نهر جيحون، ولقرابة الدم التي تربط بين

ساكنيهما أيضا، ثم إن بلاد ما وراء النهر لم تدر كولاية مستقلة عن خراسان طوال هذان العهدان . (8)

التعريف اللغوي للكوارث الطبيعية:

تذكر الكارثة الطبيعية في كتب المؤرخين والجغرافيين والرحالة باسم " الجائحة " فيقال اجتاح الإقليم واجتاحت الأرض ، والجائحة في اللغة هي الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال ، وقد يدخل في معناها كذلك الاستئصال لأنه من الاجتياح ، فيقال جاحتهم السنة جوحاً و جياحة و اجاحتهم أي استأصلت أموالهم كما ورد لفظ الجائحة بمعنى المصيبة تنزل بالرجل في ماله فتجتاحه وتتطابق بعض الألفاظ الأخرى في معنى الجائحة مثل " النائبة " أي ما ينزل بالبشر من ملمات وحوادث أو " الشدة" أو المصيبة" أو " النازلة " وعنها يقول ابن منظور "....ويقال عنها الفواجع والفواجع : المصائب المؤلمة التي تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أَو حميم ، الواحدة فاجعة ودهر فاجع له حميم... و فجعني الرعد والصواعق ، و يوم الكريهة ، ونزلت بفلان فاجعة ...." (9)

والملاحظ أن المعنى يدور حول ما ينزل بالناس من مصائب في أموالهم ومصادر رزقهم بشكل ليس لهم دخل فيه بل عن طريق قوة قاهرة لم يستطيعوا دفعها ، بدليل أنها كثيرا ما ترد بلفظ "شدائد الدهر" ولذلك فهي تشمل كل ما ينزل الضرر بالمال و المزروعات والحيوانات ومصادر الرزق عامة، من برد وثلج وصقيع و أفات وأمطار وجراد وهزات أرضية . (10)

رصد لأهم الكوارث الطبيعية في الإقليم خلال فترة البحث:

سنحاول تعقب أصناف الكوارث الطبيعية التي ألمت بسكان إقليم ما وراء النهر خلال فترة البحث اعتمادا على النوازل التي ألمت بالإقليم ، والتي لم يكن للناس دخلاً فيها.

يقول ابن خلدون (11) "... إن قبض الناس أيديهم عن الفلح.. والجبايات والفتن الواقعة...وكثرة الأمطار وقلتها...فإذا كان الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلى الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا... وكانت بعض السنوات بها الاحتكار موجود فشمل الناس الجوع ..." ومن خلال هذا النص يمكن استخلاص أسباب المجاعات في نقطتين أساسيتين :

أسباب بشرية: تمثلت في الوضع السياسي بسبب الحروب والفتن فضلًا عن احتكار تخزين الناس للزرع.

أسباب طبيعية: ارتبطت بالعامل المناخي ومدى وقع تغيراته على الزرع والضرع.

ولما كان موضوعنا منصب على الكوارث الطبيعية فسوف نقتصر على العامل الثاني، حيث يبين الجدول الآتي أهم الكوارث الطبيعية التي تعرض لها إقليم ما وراء النهر خلال فترة البحث :

مسلسل	سنة وقوع الكارثة	النص الدال عليها	المصدر
-1	418هـ/ 1026	(.....فيها وقع برد شديد كبار ...يكون في الواحدة رطل أو رطلان.....وأصغره كالبيضة ..أهلك المزروعات....)	الكرماني، نسائم الأسحار، ص176.
-2	420هـ/1028م	(.....وفيها وقع بالبلاد برد عظيم أضر المزروعات.... وارتفعت بعده ريح سوداء قلعت الأشجار....وقلعت أسقف البيوت....)	المقريزي،إغاثة الأمة،ص167

-3	431هـ/1039م	(....تعرض الإقليم للقحط ، لما أصاب البلاد من صقيع أتلف المزروعات وتسبب بموت الحيوانات، وكانت بخارى وسمرقند أكثر المدن تأثرا بهذا القحط....)	ابن الجوزي، المنتظم ، ج5،ص165.
-4	444هـ/1052م	(.....ضرب خراسان وبلاد ما وراء النهر زلزال شديد وخربت البلاد ولاقى الناس عنت شديد.....)	ابن الأثير، الكامل،ج8، ص88
-5	448هـ/1056م؛ 449هـ/1057م	(...اشتد الجوع وانتشر الذباب وانتشرت الأوبئة.... والأسعار في ازدياد مستمر ..... لوفاة من يقومون بزراعتها أو الاتجار فيها من جراء الوباء الذي لحق بالناس....واستمر الحال هكذا إلى سنة 449ه/1057م حتى كان الناس يحفرون الأرض ويلقون فيها العشرين والثلاثين نفس لكثرة الموتى ، حيث لم تعد المقابر تتسع وكان الدفن في الطرقات وربما في البيوت...)	الحنبلي ، شذرات الذهب،ص327؛ القزويني، أثار البلاد ، ص432
-6	458هـ/1065؛ 459هـ/1066م	(..... تعرضت بلاد ما وراء النهر وخراسان لزلازل شديدة استمرت عدة أيام مما أدى إلى	ابن الأثير، الكامل ،ج9 ،ص34؛ابن

		هلاك الكثير من أهالي المدن وهروب العديد منهم إلى الصحراء للإقامة، وتبع ذلك حدوث المجاعات ثم حدوث الغلاء الفاحش واستمر الحال إلى سنة 459ه/1066م حيث زاد الوباء الناتج عن قلة الأقوات ....)	كثير، البداية ، ج12 ، ص123
-7	464هـ/1071م	(....وتكرر الوضع في هذه السنة بسبب سيل عظيم وبرد شديد خرب البلاد وظهر الموت في الأغنام.....)	أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج2، ص56.
-8	465هـ/1072م	(.....تعرضت المزروعات للتلف من جراء ورود جراد عظيم على الإقليم أكل المزروعات فانعدمت الأقوات وظهر الغلاء بين الناس..... حتى أكل الناس الخيل والجمال..... وأقفلت المحال والأسواق....)	ابن كثير ، البداية ،ج12، ص107.
-9	468هـ/1120م	(....وفي هذه السنة سقطت أمطار شديدة دامت لعدة أيام وأهلكت ما على رؤوس النخل وفي الشجر من الأرطاب والأعناب والفواكه وما كان	ابن الجوزي، المنتظم ،ج5 ،ص206 .

		في الأراضي من غلات وعم الغلاء على الناس....)	
-10	472هـ/1137م	(...وقع غلاء شديد على إقليم ما وراء النهر ، طالت مدته وعظم أثره على الناس حتى افتقر الأغنياء وانعدم القوت لدى الجميع ، وهلك الناس، وهاجر الناس إلى البلاد المجاورة هرباً من الجوع و الأمراض ، وقد بلغت الشدة بالناس مبلغها....)	أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج2، ص98؛ ابن الأثير،الكامل ، ج9،ص66.
-11	478هـ/1077م	(..... عم الموت بالطاعون البلاد وكثر الموتى حتى كادت الدور والقرى تخلو من ساكنيها ولم يكن الطاعون معهوداً بتلك البلاد قبل ذلك واحتار الأطباء في علاجه ثم تلاه موت الفجئة ثم اخذ الناس الجدري في أطفالهم ثم تعقبه موت الوحوش في البرية ثم تلاه موت الدواب والمواشي ثم قحط الناس وعزت الأقوات حتى أكل الناس الميتة .....وهلك العباد وأغلقت المحال وخلت الأسواق من شيء يقال له المواد.....)	الألوسي ،غرائب الاغتراب ونزهة الألباب ، 207.

12	492هـ/1081م	(....عم الغلاء جموع ما وراء النهر وخراسان نتيجة للبرد الذي أتلف الزرع وقضى على الحيوانات.... ،ثم لحق الناس بعده وباء جارف فمات منهم خلق كثير حتى عجز الناس عن دفنهم.....)	ابن الأثير، الكامل، ج9، ص87.

ومن خلال دراسة الجدول يمكن الخروج بالملاحظات التالية

- أن أثر تلك الكوارث كان عاما ليشمل معظم إقليم ما وراء النهر وفي أحيان أخرى تعداه ليشمل إقليم خراسان . (12)

- تبدلت أحوال الإقليم في سنوات الكوارث و لم تعد كما كانت إذ لم يبق من مظاهر العمران إلا القليل، وخربت المزارع ، وأصاب الناس الجوع حتى أخذ أصحاب البيوت ينزعون سقوف بيوتهم ويبيعونها، وكانوا يموتون جوعاً حتى ذهبت أسر بأكملها، وتدهورت قيمة الضياع ، وهبط سعر الدرهم ، فأصبح لا يساوى شيئاً. (13)

- كانت الآثار المحلية لتلك الكوارث أكثر ظهورا في بعض المدن عن المدن الأخرى (14) وأكثر ظهورا في القرى عنها في المدن ومات أكثر أهالي البلاد (15) و هبط سعر العملة وقيمتها في أوقات الكوارث الطبيعية إلى أدنى مستوى. (16)

- من الملاحظ أيضا تغير في أنماط الأكل لدى السكان في أوقات الأزمات فنجد الناس يلجئون إلى أكل الخيل والجمال والجراد وهم في ذلك أوفر حظا ممن يأكلون الكلاب . (17)

- بالرغم من المبالغة في بعض الروايات التي أوردها المؤرخون عن أكل الناس للموتى أو أن يذبح بعضهم إنسان ويطهوه ويبيعه [18] إلا أنها تدل على شدة الأزمة وقسوتها على الناس حتى يستحلوا ما حرم الله.

- أن النتيجة الحتمية والحلقة التالية في سلسلة معاناة الناس في إقليم ما وراء النهر عقب كل كارثة هي انتشار الأوبئة والأمراض [19] التي تحصد أرواح الناس دون هوادة وهي إن كانت نتيجة للكوارث فهي إحدى المسببات أيضا و لا مراء أن فساد الهواء والماء من أهم العوامل المسئولة عن حدوث الأوبئة إن لم يكن العامل الرئيس، وهو ما أقره ابن خلدون [20] في مقدمته، موضحاً أثر المناخ على الإنسان ومحيطه الطبيعي؛ حيث ذهب إلى أن فساد الهواء يحدث "لكثرة ما يخالطه من العفن و الرطوبات الفاسدة الحاصلة بسبب كثرة العمران". وهو ما دفع بالكتاب المسلمين لتخصيص مؤلفات تتناول العلاقة الوشيجة بين فساد الهواء وحصول الوباء [21] كما حظيت تلك العلاقة باهتمام العديد من الأطباء المسلمين ضمن مصنفاتهم [22] كذلك فإن المياه الفاسدة تتسبب في العديد من الأمراض والأوبئة والحميات الدقيقة والأورام الطاعونية والجرب كما تتسبب الاضطرابات المناخية وتغير الفصول في إحداث بعض الأوبئة الفتاكة [23] ، ويحدث ذلك عندما يكون الربيع بارداً يابساً، والخريف على طبيعة الربيع، والشتاء على طبيعة الصيف. [24] كما يؤدي تذبذب سقوط الأمطار وحلول القحط في كثير من الأحيان إلى تغير الهواء وفساده ، ومن ثم انتشار عدة أمراض مثل الرمد والسعال وانبعاث الدم من المقعدة وغيرها من الأمراض . [25]

- من أهم التداعيات المترتبة على الكوارث الطبيعية التي تعرض لها الإقليم التوزيع الديموغرافي للسكان الذي دفع بالإقليم إلى الاختلاف لتتغير صورته بعد الكارثة عن قبلها فنلحظ هجرة الناس من القرى إلى المدن أو هجرتهم

إلى الصحراء ، ثم هجرتهم إلى المدن والأقاليم المجاورة حتى خلت مدن بأكملها من ساكنيها.

- التحول الاجتماعي أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم الحراك الاجتماعي كان من أهم النتائج المترتبة على تلك الكوارث حيث تحول الكثير من الناس من الغنى إلى الفقر مما كان له أثاره السلبية على ذهنيات أولئك الناس كما سنرى لاحقا.

- وبملاحظة الجدول السابق أيضا نرى تغير الفكر الاستهلاكي وتغير في قيمة الأشياء لدى العامة ففي الوقت الذي تغلو فيه الأقوات وترتفع أثمانها ويكثر الموتى ، تهون الدنيا بمتاعها من عقار ودواب وذهب وجواهر، حتى تذكر المصادر ثمة امرأة تقف لتقايض عقد من الجوهر برغيف خبز فلا تجد من يقايضها (26) إن وصف المصادر التاريخية للكوارث الطبيعية وما يلحق بها يدل على التداعيات التي تسببها تلك الكوارث والارتباط الحاصل بين ما يصيب المزروعات من أفات، والتي تلقي بظلالها على الحالة الاقتصادية للسكان من حيث ندرة المواد الغذائية وارتفاع أثمانها، بل وانعدام وجودها، مع انعدام الدواء وبالتالي انتشار الأوبئة والأمراض فتفشي الموت في متلازمة وثيقة الارتباط .

والحقيقة أن تكرار تلك الكوارث الطبيعية وتماثل نتائجها الواضحة خاصة بين الطبقات الدنيا من الناس ينبأ عن حقيقة واحدة وهي عدم قدرة الإنسان على التصدي لها أو حتى تخفيف أثارها وإنما يقف أمامها عاجزا موقناً بأن ذلك إنما بقدرة قوة خارقة لا يستطيع التصدي لها بكينونته أو بقدرته المحدودة ومن هنا تظهر محاولات الهروب أو على الأقل التكيف مع تلك الكوارث وأثارها ، وذلك بالهروب وفقد الأمل في تلك الحياة الدنيا

الزائفة الفانية ، فلا يبقى أمامهم إلا الأمل في حياة أفضل في الدار الآخرة ، ومن هنا يأتي انخراط الكثير من الناس في صفوف الزهاد والمتصوفة ، أو أن يسيطر الفكر الخرافي على البعض منهم الذي يحاول أن يجابه القوى الخارقة للطبيعة بقوى أخرى على نفس قدرها أو أقوى منها يستطيع هو التحكم فيها وهي قوى السحر والشعوذة على حسب ما يعتقد .(27) ذلك في الوقت الذي يحاول فيه منتهزي الفرص ومنعدمي الوازع الديني من استغلال تلك الظروف واستغلال جهل العامة من الناس والمصائب التي تنزل بهم بزرع أمل الخلاص من تلك الكوارث وعدم تكرارها عن طريق قراءة الطالع وعمل السحر وغيره ، والحقيقة أن ذلك لم يكن ليحدث لولا غياب الوازع الديني لدى الناس وغياب دور الأئمة والفقهاء في توعية الناس وما ذلك إلا بسبب الانخراط في النزاعات الدينية بين الشافعية والحنبلية و الحنفية وغيرها من المذاهب التي انتشرت في العالم الإسلامي ، وانتشر معها في تلك الحقبة النزاع المرير الذي كثيرا ما شكل في حد ذاته كارثة يعاني منها الناس إذا ما تطور هذا الصراع وأخذ شكل القتال فيما بينهم.(28)

- **الانخراط في صفوف الزهاد والمتصوفة**

انتشر التصوف في إقليم ما وراء النهر والمشرق الإسلامي كله في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكان أول ظهور للتصوف بمصر إلا أنه تكامل وشهد نموه الحقيقي في المشرق الإسلامي وخصوصا في بغداد ومنها إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر (29)والتصوف هو الشكل الذي اتخذه الناس في الميل إلى الزهد ومن ثم الاتصال المباشر بالله في الدين الإسلامي ، وهي ليست مجموعة من المبادئ بقدر ما هو أسلوب من أساليب التفكير والإحساس في الأمور الدينية ومن أهم مظاهره التقشف في الدنيا والعزوف عن ملذاتها وزخارفها والإقبال على الآخرة .(30) ذلك ما جعل

الانخراط في صفوف المتصوفة من أهم الآثار الذهنية للكوارث الطبيعية التي ألمت بإقليم ما وراء النهر وسبباً من أسباب بروز فئة المتصوفة وكثرة المتمسحين بها ممن كانوا يفرون مما يرونه من أهوال ومحن وأزمات إلى ساعة في صحبة الصوفية بقلب فارغ . (31) وكانت أهم ملامح المتصوفة تتلخص في لبس المرقع من الثياب ، ولبس الصوف وأكل الخبز من الشعير بالملح المجروش وأكل " الخشكار" وهو الخبز المصنوع من النخالة ، وكان المتصوفة يأتون ببعض الأمور التي يعتقدون أن بها التصوف والزهد الحقيقي ،كأن لا ينام الصوفي إلا جالسا أو ألا يأكل إلا الخبز ، ومنهم من لا يأكل إلا أوراق الخس ولا يلبس إلا ثوبا واحدا (32) وتلك الأمور هي التي جعلت الناس تبهر بهم ، ويعتقدون في صلاحهم ، وأنهم من أهل الكرامات فينضمون إلى رحابهم هربا مما يلحق بهم . وهذا ما جعل الكثير من المراجع ترجع إقبال العامة على الانخراط في صفوف المتصوفة إلى العوامل الاقتصادية السيئة والتي كان من أهمها انتشار الأوبئة والمجاعات وما كان يلازم ذلك من شظف العيش. (33)

تلك العوامل التي انحرفت بالناس إلى ناحية جانبية من الحياة ، فوجدوا في زهدهم وعزوفهم راحة وطمأنينة لنفوسهم ، وهذا ما دفع البعض إلى القول بأن التصوف بدأ كظاهرة اجتماعية قبل أن يكون عقيدة وفلسفة ولذلك فإننا حين ننظر إلى الجماعات التي انتشرت فيها مبادئ التصوف في ذلك العصر ، نجدها في الغالب فئات اجتماعية فقيرة . (34) كما نلاحظ انتشار التصوف بين الحرفيين فقد كانوا من أكثر الفئات التي تعاني من أثار الكوارث الطبيعية التي تنزل بالإقليم. ولم يكن الانخراط في صفوف المتصوفة قاصرا على الرجال دون النساء فكثيرا ما انخرطت النساء في صفوف المتصوفة منعزلة عن الدنيا.خاصة وأن دعاة الصوفية كانوا يستعملون

الكلام المسجوع والمزخرف لجذب واستدراج الناس إليهم. بالإضافة إلى ما كان يشيع عن المتصوفة من قدرتهم على الإتيان بالأعمال الخارقة، والتي جعلتهم مصدرا للبركة والتقرب إلى الله عز وجل ، وأن يستغاث بهم لفك الكرب ويتوسل بهم لقضاء الحاجات. (35) حتى إن البعض كان يتبرك بأكل ما يتبقى من المتصوفة من فتات الخبز (36) وهذا ما أدى إلى وجود بعض مدعي التصوف والذين أخرجوه من معناه الحقيقي وهو الاهتمام بالشريعة وأحكامها والعمل بها إلى تعطيل شريعة الله ، فوصل الحد بالبعض منهم إلى القيام بالأعمال المحرمة الخارجة عن الشرع مستغلين المكانة التي احتلها المتصوفة بين الناس والقيام بما يريدون من أعمال وهم في نفس الوقت يدعون أنهم متصوفة وأنهم وصلوا إلى مكانة عالية في التصوف والزهد تسمح لهم بفعل ما يريدون. (37)

التحول إلى مذهب الإسماعيلية

الإسماعيلية إحدى فرق الشيعة ويعتبرون أن إسماعيل بن جعفر الصادق الإمام السابع ، وكانوا يقولون أن إسماعيل مستتر والأئمة من بعده مستورون وسوف يظهرون حين يقتضي الوقت الصلاح. (38) كما أطلق عليهم أيضا لقب الباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، ولأنهم يقولون أن لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل، كما عرفوا بالحشاشين أو الحشيشة ، لما عرف عنهم وألصق بهم من استخدام مادة الحشيش في التضليل بعقول من يدخل في دعوتهم، كما عرفت تلك الفرقة بالسفاكين أو السفاحين لأن هذه الفرقة تبنت مبدأ الاغتيالات السياسية والتخلص من أعدائهم بالقتل. (39)

وكانت فرقة الإسماعيلية من أكثر الفرق انتشارا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ببلاد ما وراء النهر والمشرق الإسلامي كله ،

وقد قامت تحت ستار المبادئ الإسلامية ، وراية الدعوة إلى العدالة الاجتماعية وأخذت تبث أفكارها وتستغل مختلف نواحي التذمر بين الناس [40] وتستغل أوقات الضعف لديهم خاصة في الفترات التي تعقب حدوث الكوارث الطبيعية وكل منهم خارج منها ولديه مصاب في مال أو أهل وحينها ينشط دعاة الإسماعيلية في مخاطبة الناس للانضمام إلى صفوفهم بالشكل الذي يرونه متلائم وطبيعة كل شخص يختارونه. [41] فمن رأوه مائل للعبادات حملوه على الزهد والعبادة، ثم يسألونه عن معاني العبادات وعلل الفرائض وشككوه فيها ومن رأوه ذا مجون وخلاعة قالوا له إن العبادة لا قيمة لها وأنها حماقة وإنما الفطنة في نيل الملذات [42] وهكذا يتلونون لكل صنف بما يتلاءم معه ، وإن كان تركيزهم يكون على عامة الناس والبسطاء منهم وممن يستطيعون إقناعهم بما لديهم من نعيم في الدنيا يعوضون به ما لاقوه جراء ما تعرضوا له من كوارث ، وأن الانضمام إلى صفوفهم يضمن لهم الجنة في الآخرة لأن دعوتهم هي دعوة الحق ، ولذلك نرى أن معظم المصادر والمراجع تكاد تجزم أن أكثر من خدع وانضم إلى صفوف الإسماعيلية كانوا من الفلاحين والصناع وأهل الحرف والمهن خاصة البسيطة منها.[43] وكذلك العبيد ممن يعانون شظف العيش والجهل بأمور الدين الحقيقية ، فيستغل دعاة الإسماعيلية فقرهم وحاجتهم وسوء أحوالهم الاقتصادية وجهلهم ، في التأثير عليهم مع الوعد من جانبهم بتحسين أوضاعهم ، خاصة إذا كان من دعاتهم شخص مثل "الحسن الصباح" أشهر دعاة الإسماعيلية وزعمائها والذي سيطر على عقول الناس وفكرهم بما كان يظهره من الورع والزهد الزائف ، كما أنه كان من أمهر المنجمين والعارفين بعلوم الفلك و الهيئة ، وكان يجيد استخدام أساليب السحر

والشعوذة وخوارق الأعمال وكثيرا ما خدع الناس بها واجتذبهم بحيله فيها.(44)

- **التعبير بالأمثال والشعر**

مع تتبعنا للفترات التاريخية التي ضربت فيها الكوارث الطبيعية إقليم ما وراء النهر، نلاحظ أنها تزامنت في بعض منها مع قيام سكان الإقليم ببعض الألوان من التمرد ضد السلطات الحاكمة ، تلك التمردات التي لم تأخذ الشكل المسلح وإنما اتخذت أشكال تعبيرية سلمية ترسم صورة لذهنيات الناس في إقليم ما وراء النهر والتي كان أبرزها الشعر أو الأمثال كتعبير عما ألم بهم من الكوارث الطبيعية ، مع ما رآه الناس من تقاعس السلطات الحاكمة عن تقديم يد العون لهم بالقدر الذي كانوا يتوقعونه منهم مما خلف لديهم شعور بعدم الأمان في ظل تلك السلطة الحاكمة ، وهذا ما يتفق مع الرأي القائل بأن الناس يظلوا ساكنين وكامنين حتى تبرز قضية والقضية تظهر حينما توجد خيبة الأمل.(45) وقد نبه الحكماء إلى خطورة ثورات عامة الناس و تمردا تهم خاصة إذا ضاقت بهم الأحوال وانعدمت لديهم الآمال وقد اتخذ التعبير عن عدم الرضا وثورة النفس وهياج الفكر أشكالا من أبرزها إطلاق الأقاويل التي سارت مسار الأمثال مثل قولهم" الكلب خير من صاحب أمرهم " يقصدون حكامهم من سلاطين السلاجقة ، خاصة المتأخرين منهم، كما عبر الناس في إقليم ما وراء النهر عن أرائهم بصورة خفية لا يفهمها غيرهم خشية حكامهم بأمثال" إياك أعني واسمعي يا جارة" ، " واصبر على الهوان من كلب"(46) و لقد ورد ذكر تلك الكوارث والأوبئة التي كانت تمر بالبلاد في العديد من الأمثال وقصائد الشعر، وكأن ذلك كان نوعاً من التصبر على ما يحيق بهم من محن ويمكن هنا أ نذكر بعض منها مثل " إذا جاء الحين غطى العين " ، " وإذا جاء القدر عمي

البصر " ، " وإذا جاء القدر لم ينفع الحذر " ، كما قيل في ذلك "حسوت الموت قبل ذوقه"وهي من الأمثال التي تعبر عن قوة وشدة الأوبئة التي تفتك بهم، وكأنهم ماتوا من الخوف قبل أن يموتوا من الوباء، وفي نفس المضمار قيل " إن الدواهي في الآفات تهترس" (47) وهكذا كانت الأمثال والأقوال المأثورة المعبرة عما يعيشه الناس من أزمات أو يواجهونه من كوارث من أهم النتائج الذهنية المترتبة على حدوثها.

انتشار السحر والتنجيم كوسيلة للتصدي لتلك الكوارث

انتشر في إقليم ما وراء النهر عادة اللجوء إلى السحرة و المنجمين والكهان وكانت اقرب إلى العادات والتقاليد عندهم بل أقرب إلى الموروثات الشعبية، التي تم توارثها عبر الأجيال، فكان لديهم ولع بالتنجيم وقراءة الطالع ومعرفة الغيبيات ومما زاد من انتشار تلك الأفكار كثرة ما تعرض له الإقليم من كوارث طبيعية وما تبعها من أوبئة ومجاعات جعلت الناس أمام قوى خارقة فأصبح لا مجال أمامهم للتصدي لها أو تفادي أثارها إلا اللجوء للسحر وقراءة الغيب لعلهم يستطيعون تفادي أثارها، ومما ساعد على انتشار تلك الأفكار المكانة التي حظي بها أولئك المشعوذين والمنجمون عند الحكام و السلاطين وادعائهم القدرة على التنبؤ بالأحداث خيرها وشرها، فكان من أسباب انتشار المنجمين والمشعوذين في أنحاء الإقليم حتى كانت لهم حوانيت خاصة بهم يقصدها ذوي الحاجات. (48)

ولم تقتصر مهنة التنجيم وقراءة الطالع على الرجال ، فقد امتهن العديد من النساء تلك المهنة وكانوا يطوفون على النساء في بيوتهن يقرؤون لهن طالعهن. (49) وكانت الحاجة إلى هؤلاء تزداد مع قدوم أي كارثة طبيعية ، فيلجأ العامة إليهم ليعرفوا مثلا متى تنتهي وما سيجري لهم بسببها وكيف

يتفادون حدوثها مرة أخرى . (50) وحتى بعد انتهائها يظل التردد على حانات المنجمين لمعرفة ما إذا كان هناك كارثة أخرى تلوح في الأفق أم لا ، خاصة إذا ما ذاع صيت أحدهم بين الناس فيعملون على التقرب إليه لتعم بركته عليهم وتحميهم من أي أخطار قد تحيق بهم (51) والغريبة أن هذا المعتقد لم يكن يختلف فيه المتعلم عن الجاهل فالكل هنا يجمعه الخوف من تلك الكوارث وآثارها ولا يعنيه سوى تجنب أخطارها و بأي وسيلة ولو عن طريق تميمة لا تضر ولا تنفع وإنما تصادف وجودها معه بحادث سعيد حدث له ، فاعتقد بقدرتها على جلب الخير ودفع الشر عنه. (52)

وانتشر كذلك الرقى والتعاويذ ليجنب الإنسان نفسه خطر الإصابة بالأمراض أو الأوبئة والتي كانت عادة ما تتبع وقوع أي كارثة طبيعية (53) وكان من اشهر من عمل بالسحر والتنجيم " الحسن الصباح " داعي فرقة الإسماعيلية والذي اتخذ من علمه بالنجوم والفلك وسيلة لجذب الناس إليه ودعوتهم إلى مذهب الشيعة الإسماعيلية فقد كان من أبرز دعاتها ، بادعائه أن له قدرة على قراءة الطالع ومعرفة القادم عن طريق تتبع حركة النجوم وأبعادها وأحجامها ومدى تأثيرها على حركة المياه بالأنهار أو على سقوط الأمطار، وحركة الرياح والأعاصير وغيرها. (54) وكذلك الشاعر" عمر الخيام" صاحب رباعيات الخيام فهو من اشهر من عمل بالتنجيم فقد كان عالما بالفلك والرياضيات وكان ممن اختارهم السلطان السلجوقي "ملكشاه"(465- 485ه)/(1073- 1093م)لإصلاح التقويم الفارسي ، وكان ممن يقصدهم الناس لمعرفة الأحداث التي من المتوقع حدوثها ، خاصة مع بداية كل سنة. (55)

إن رصد المؤرخين لبعض أقاويل الكهان والمنجمين عن توقع حدوث بعض الكوارث الطبيعية بالبلاد وما حدث جراء ذلك من إرجاف الناس وخوفهم ،

في حد ذاته اكبر دليل على مدى تصديق الناس لكلام الكهان و المنجمين ولجوؤهم إليهم لتفادي تلك الكوارث أو التخلص من أثارها ، بما يقدمونه لهم أولئك الكهان من تمائم أو قراءات يعتقدون بقدرتها على حمايتهم (56) ففي سنة 489ه/ 1141 م اتفق المنجمون وحكموا بوقوع فيضان كبير يقارب فيضان نوح ، نتيجة لاجتماع ست كواكب في برج الحوت ، وخاف الناس وأرجفوا ومنهم من فكر في الاستتار بالجبال ، وحدث سيل بالصحراء أغرق الكثير من الناس والدواب والمال فأغدق السلاطين عليهم وزاد إقبال الناس عليهم للانتفاع برأيهم. (57)

ـ ظهور مفهوم التضامن والترابط الاجتماعي بصورة أوضح.

في الحقيقة لم تكن الكوارث الطبيعية وما تبعها من آثار قاسية على الناس في إقليم ما وراء النهر تترك أثارها السلبية فقط على عقول الناس وأفكارهم وما يتبعها من تصرفات حسية ملموسة ، فقد أوجدت أيضا ما يمكن أن نطلق عليه التفكير الإيجابي لحل الأزمات والذي اتضح في عدة صور كان من أهمها وضوح مفهوم التضامن والترابط الاجتماعي و الاقتصادي من خلال ما كان يقوم به أهالي الإقليم من الموسرين من محبي الخير ممن كانت وطأة تلك الأزمات عليهم أقل من غيرهم من إعانات تقدم للناس في صور مختلفة ، كان أبرزها تقديم الطعام والشراب في المساجد ومد السماطات والموائد للناس و إعمار التكايا والزوايا والخوانق والربط وكلها أماكن أنشأت في الأساس لتقديم الخدمات الاجتماعية كتوفير الأكل والشرب والعلاج والإيواء للمتصوفة و المنقطعين للعبادة ، وأوقفت عليها الأوقاف كنوع من التقرب لله بها ، فكانت خير معين في أوقات الأزمات للناس كافة . (58)

كما كانت تظهر في تلك الفترات صورة قوية للتكافل الاجتماعي ومساندة الغير والتلاحم لتخفيف حدة الأزمة، بما يقوم به المتطوعين ومحبي الأعمال الخيرية من تغسيل للموتى وتولي دفنهم بلا مقابل أو أن يقوم بعض العطارين بفتح أبواب محالهم أمام الناس لبيع الدواء والأعشاب وغيرها مما ينفع المرضي في حالات الأوبئة والأمراض بلا مقابل أيضا (59). ولا يمكن إنكار دور السلاطين السلاجقة الأتراك خاصة الأوائل منهم، ووزرائهم من الفرس في هذه الناحية بشكل خاص فقد كانوا من محبي الخير، فذكرت لهم كتب التاريخ الكثير من الأعمال مثل إطعام المساكين والفقراء بشكل يومي والتكفل بتكفين الموتى وتغسيلهم ودفنهم ، فيذكر أن طغرلبك (429- 455ه)(1037- 1063م) وهو مؤسس الدولة السلجوقية ، كفن في سنة 448ه/1056م وهي إحدى السنوات التي عانت فيها بلدان المشرق الإسلامي كله من تلك الكارثة التي نتجت عن وباء أصاب الثمار والأشجار فندرت الأقوات وانقطعت التجارات، ثمانية عشر ألف إنسان من ماله الخاص. كما كان السلطان ملكشاه ومن قبله السلطان ألب آرسلان (455- 465ه)/(1063- 1073م) ووزيرهما نظام الملك الطوسي من أكثر الناس إنفاقا على الناس في وقت الأزمات، فكانوا يخرجون من مالهم ومحاصيلهم وغلاتهم ليفيدوا منها الناس وكثيراً ما أقاموا السماطات والموائد للفقراء والمحتاجين. (60) وتبعهم في ذلك الكثير من المشايخ والعلماء خاصة المتصوفة منهم ممن اتخذ الزهد ومساعدة الناس والعطف على الفقراء منهجا لهم مثل "الشيخ أبو منصور جامع بن عبد الصمد" المتوفى سنة 511ه/1117م والذي يقول عنه السمعاني (61) "كان صالح ، عفيف ، نفاع ، يسعى في المصالح" .

وكان من أبرز مظاهر التضامن الاجتماعي في أوقات حدوث الكوارث الطبيعية ، إبطال خروج ركب الحج الذي كان يخرج من إقليم ما وراء النهر ليلحق بركب الحج الخرساني في إقليم خراسان ، فكثيرا ما تطالعنا كتب التاريخ بعد الحديث عن نزول كارثة طبيعية أو حدوث وباء أو مجاعة ، بعدم خروج ركب الحج في تلك السنة مثلما حدث سنة 418ه/ 1011وهي من السنوات التي شهدت غلاء في الأسعار وانعدام في الأقوات لنزول البرد فأهلك المزروعات (...وفيها انقطع الحج من العراق وخراسان...) (62) وتبرع من أراد الحج بمال الحج لإطعام الفقراء والمساكين ، خاصة مع صدور بعض الفتاوى التي تحبذ إطعام الفقراء والمحتاجين والتخفيف عليهم خاصة في أوقات الأزمات ، عن أداء الحج (63) فأصبح ذلك منهج للعلماء ومحبي الخير وطالبي الثواب والأجر.فقد تعطل خروج ركب الحج في سنة 448ه/1056م وهي من السنوات التي انتظمت بعقد الكوارث الطبيعية التي ألمت بإقليم ما وراء النهر في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي والحقيقة أن كثير من فقهاء ذلك العصر من أمثال الإمام القشيري ، والإمام الغزالي قد أجازوا تأجيل أو إلغاء فريضة الحج في سنوات الكوارث وتحسين استبدالها بمؤازرة الفقراء والمحتاجين والتخفيف عن المنكوبين وأوضحوا أن ذلك من باب الاجتهاد الذي يتيحه الشرع لأهل العلم. (64)

وقد يقوم السلطان السلجوقي أو أمير الإقليم بتجهيز ركب الحج لإقليمه على نفقته الخاصة أو الاشتراك في تجهيزه والتكفل بنفقة العديد من المشتركين فيه مثلما حدث سنة 458ه/1065م حينما جهز السلطان أرب آرسلان ركب الحج الخراساني من ماله الخاص وتكفل بنفقات حج خمسة ألاف من إقليم ما وراء النهر وكان الإقليم قد تعرض لزلزلة شديدة ومحنة عنيفة في هذه السنة(65) ، إلا أن أكثر أوجه الإحسان التي طالعتنا بها

كتب التاريخ كانت من قبل علماء الإقليم ، فهذا "محمد بن إدريس الإسترابادي" الإمام و الفقيه، يفتح أبواب داره لإطعام الفقراء وقضاء الحاجات لأصحابها ولا تغلق ليلا أو نهار (66) وكذلك "الشيخ عمر بن أحمد القرميسيني" فكان يمد الموائد أمام بيته للفقراء ،خاصة في أوقات الأزمات، ويحمل من داره الخبز والسكر ويوزعه على بيوت جيرانه فعرف بالفضيل الكريم.(67)

ومن ذلك نرى مدى تواتر الكوارث الطبيعية على إقليم ما وراء النهر في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وما نتج عنها من تأثيرات ذهنية منها الحسن ومنها ما هو دون ذلك إلا أنها كلها تعطي صورة عن ذهنيات الناس وتوجهاتهم.

نتائج البحث

بعد إتمام بحث الكوارث الطبيعية وأثرها على ذهنيات العامة في إقليم ما وراء النهر في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- كان القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي من أكثر الفترات التي توالت فيها الكوارث الطبيعية على إقليم ما وراء النهر،والتي تنوعت آثارها الذهنية على العامة والخاصة في الإقليم وإن كانت في مجملها تحمل انعكاسا للخلفية الدينية وما رسخ بشخصيتهم من معتقدات وعادات ترجع في البعض منها لثقافات مختلفة باختلاف أصول السكان.

- ظهرت التأثيرات الذهنية في تلك الفترة أكثر ما ظهرت في انضمام الناس إلى صفوف الزهاد والمتصوفة ، مدفوعين بما ألم بهم من أثار سيئة لتلك

الكوارث، معبرين عن عجزهم عن مواجهتها بهروبهم من الحياة الدنيا ومتاعها الزائف لأمل أفضل متمثل في الحياة الآخرة .

- شكل ما لحق بالمتصوفة من دعايات بقدرتهم على الإتيان بأعمال خارقة ، وما لديهم من كرامات ، أثر كبير وراء اندفاع الناس للالتحاق بصفوفهم ، كنوع من الحماية ضد ما يلحق بهم من أمراض وأزمات .

- على الجانب الآخر مثل الانضمام إلى صفوف فرقة الإسماعيلية إحدى المؤثرات الفكرية في مجتمع ما وراء النهر في فترة البحث ، وكانت من أشد المؤثرات خطورة على المجتمع دينيا و اقتصاديا وسياسيا.

- كان الانخراط في صفوف الإسماعيلية يظهر بشكل كبير بين الطبقات الدنيا من المجتمع والتي تضم الفلاحين وصغار الصناع والحرفيين وأصحاب المهن البسيطة، بسبب سؤ أحوالهم الاقتصادية والتي كانت تظهر بشكل واضح في فترات الكوارث الطبيعية وما بعدها ، لذا كان الانضمام إلى فرقة الإسماعيلية يمثل لهم النجاة في الدنيا والآخرة.

- مثل الانضمام إلى صفوف فرقة الإسماعيلية أمرا أكثر جذبا للناس ،حتى من الانضمام في صفوف المتصوفة ذلك أن الانضمام إلى صفوف المتصوفة والزهاد كان يعني الاستغناء عن متاع الدنيا ونعيمها ، بعكس الانضمام إلى صفوف الإسماعيلية الذي ضمن لصاحبه من وجهة نظرهم خيري الدنيا والآخرة ، وذلك ما كان يبثه دعاة الإسماعيلية بين مريديهم.

- رغم انتشار الإسلام وكثرة العلماء في إقليم ما وراء النهر في تلك الفترة وذيوع شهرتهم ، حتى كانت الرحال تشد إليهم لأخذ العلم عنهم ، إلا أنه انتشرت الكهانة والسحر وعمل التمائم وغيرها من الأعمال المنافية لتعاليم

الدين الإسلامي بين الناس وشكلت جزء من أفكارهم ومعتقداتهم بشكل لا يمكن التغافل عنه.

- كان ولع الحكام والأمراء والوزراء في إقليم ما وراء النهر والمشرق الإسلامي بشكل عام في تلك الفترة بالمنجمين ومن يقوم بقراءة الطالع والتنبؤ بما سوف يقع من أحداث ، وإغداق الأموال عليهم إذا صادف ووقع ما توقعوه ، من أسباب اهتمام الناس بعلم التنجيم والعمل به وانتشاره كمهنة في تلك الفترة .

- انتشرت مهنة الكهانة والسحر بشكل واسع بين الناس وامتهنها الرجال والنساء على حد سواء ، واعتقد الناس بها كقوة خارقة تواجه قوة الطبيعة التي لا قبل لهم بها.

- مثل التكافل الاجتماعي في أوقات حدوث الكوارث الطبيعية ظاهرة اجتماعية طيبة ، مثلت انعكاسا لأفكار إيجابية نعم بها عامة إقليم ما وراء النهر ،فقد ظهر التكافل الاجتماعي بشكل كبير بين عامة الناس تزعمهم في ذلك العلماء وكبار شيوخ الصوفية وكان الدافع فيه القربى إلى الله وظهرت معظمها في مد السماطات والموائد للفقراء وتوفير ضروريات العلاج لهم وإن تركز ذلك على جعله في التكايا والأربطة والزوايا إلا أنها شكلت صورة من صور الترابط الاجتماعي.

- على الرغم مما مثله تبرع الناس ووقفهم الأوقاف على التكايا والأربطة والزوايا كشكل من أشكال الترابط الاجتماعي إلا أنه في الوقت نفسه كان من المشجعات على التواكل وسلك الطرق الأسهل في حل الأزمات الاقتصادية .

- اتخذت صور التكافل الاجتماعي أشكالا شتى كان من أهمها تأجيل أو إلغاء الخروج لفريضة الحج في سنوات الكوارث وإنفاق أموالها على الفقراء والمحتاجين، وكان مما شجع الناس على ذلك الفتاوى التي ظهرت وتفيد بتفضيل مصلحة الناس والتخفيف عنهم في الكرب عن الخروج للحج.

- لم تكن السلطة السلجوقية بعيدة عن المشهد وإن لم تظهر بالشكل المطلوب ، فأصبحنا نرى تبرعات السلاطين السلاجقة ووزرائهم من الفرس للفقراء من عامة الناس وقد اتخذت تلك التبرعات أشكال مختلفة منها مد الموائد ومنها التكفل بتغسيل الموتى ودفنهم أو التكفل بنفقة الحج لأعداد من الناس أو التكفل بنفقة ركب الحج بشكل عام ، وإن كان ذلك قد تم في عهد السلاطين العظام منهم فقط.

الحواشي

([1]) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، دار صادر بيروت، 2007م، ،ج 2 ، ص213.

([2]) القزويني ، أثار البلاد وأخبار العباد،دار صادر بيروت، 1969، ص423.

([3]) أرمنيوس فامبري ، تاريخ بخارى ، ترجمة أحمد محمود الساداتي، مراجعة يحي خشاب المؤسسة المعربة العامة للطبع والنشر ، القاهرة، 1962، ص531؛ إدوارد براون ،تاريخ الأدب في إيران ،ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، جامعة الكويت، 1996، ص209.

([4]) البلازري،فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت1996،ص423؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت، 1415ه، ج9،ص213

([5]) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن 1983 ؛ طارق فتحي سلطان، مقدمة في الحركة العلمية العربية في المشرق الإسلامي ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1989،ص65.

([6]) الزبيدي ، تاج العروس، المطبعة الخيرية، القاهرة، 1306ه،ص365.؛ اليعقوبي ، البلدان ، طبعة ليدن، 1893، ص134.

([7]) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي،مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1938،ص65

([8]) البلازري، فتوح البلدان ،ص423؛ ابن الفقيه :البلدان ، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب بيروت، 1996، ص211.

([9]) ابن منظور، لسان العرب ،طبعة مصورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية للنشر، 2002، ج1، ص528، الزبيدي ، تاج العروس، ص365.

([10]) السهروردي ، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي دمشق، 1982، ص190.

([11]) ابن خلدون ، المقدمة ،دار الكتب العلمية بيروت ،1992،ص282.

([12]) أبو الفضل البيهقي، تاريخ البيهقي ،ترجمة يحي الخشاب، صادق نشأت،دار النهضة العربية بيروت، 1982، ص752.

([13]) الذهبي ، دول الإسلام ،تحقيق حسن إسماعيل مروه ،دار صادر بيروت ،1999، ص412

([14]) عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي خلال القرن الرابع الهجري، دار المشرق بيروت، 1974م، ص98.

([15]) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الدول والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت1998، ج5، ص354.

([16]) البيهقي ، تاريخ البيهقي ، ص732.

([17]) ابن الأثير ، الكامل ، ج9، ص85.

([18]) الحافظ النيسابوري، تاريخ نيسابور، تحقيق مازن عبد الرحمن البحصيلي ، دار البشاير الإسلامية بيروت، 1427، ص312.

([19]) يعرف الوباء في اللغة بأنه :كل مرض عام، وقد وبئت الأرض توبأ فهي موبوءة إذا كثر مرضها،ويطلق على الوباء مرادفات أخرى :كالقرف و الموتان.أما مفهوم الوباء في الاصطلاح الطبي فيذكر ابن زهر أن الناس قد اعتادوا على إطلاق اسم الوباء "على الأمراض التي تصيب أهل بلد من البلدان وتشمل أكثرهم" خاصة أن الناس جميعهم يشتركون في استعمال الهواء الذي يستنشقونه، ولهذا "إذا كان الهواء فاسد عم المرض أهل ذلك الموضع أو عم أكثرهم.الموسوعة العربية العالمية،ط1، الرياض،مؤسسة أعمال الموسوعة، 1419هـ/ 1999م،"مادة وباء"48/27 ؛ ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق ميشيل الخوري، دار الفكر، دمشق 1983 م،ص450، 458

([20]) ابن خلدون، مصدر سابق،ج2،ص110 .

([21]) القفطي،إخبار العلماء بأخبار الحكماء،دار الكتب العلمية، بيروت 2005م،ص74.

([22]) ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق ميشيل الخوري، دار الفكر، دمشق 1983، ص 450- 458.

([23]) ابن زهر، مصدر سابق ،ص454، 456، 485.

([24]) ابن هيدور الفاسي، المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية،بعثة المغرب الأولى من المكتبات الخاصة 3 / 455،ورقة 2

([25]) ابن خاتمة الأنصاري ،تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد،نشر ضمنت كتاب عبد الكريم الخطابي الطب و الأطباء في الأندلس الإسلامية،دار الغرب الإسلامي،بيروت، 1988م.،ج1ص170.

([26]) ابن زهر، مصدر سابق، 453.

([27]) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأنباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت، ص215، 221.

([28]) أبوا الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية القاهرة، 1962، ج1، ص172.

([29]) الباخرزي، دمية القصر و عصرة أهل العصر، تقديم على إبراهيم جواد، دار الكتب العلمية بيروت 2008، ص342؛ وسيم فتح الله، البدع وأثرها السيئ في الأمة، مكتبة العلوم والحكمة، الموصل، 1997، ص87.

([30]) البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة للطباعة بيروت ، 1973 ؛ مجدي عبد المنعم أعجمية ، المجتمع الإسلامي في العصر السلجوقي، 199 ،ص54، 56.

([31]) الدنيوري، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر، جما الشيال، مكتبة المتنبي بغداد 1376ه، ص98؛ عبد المجيد أبو الفتوح ، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي، دار الوفاء للطبع والنشر، القاهرة ، 1988 ،ص167 .

([32]) الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين ، تصحيح ريتر، مطبعة الدولة استانبول1929 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ،دار الكتب العلمية بيروت2006، ص453.

([33]) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، دار العلم بيروت 1983؛ براون، تاريخ الأدب، ص212.

([34]) القابسي ، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين ، تحقيق أحمد خالد ، الشركة التونسية للنشر1986، ص 311؛ ابن الجوزي، المنتظم ،ج5، ص314 ؛ ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تعليق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت 1992، ج5، ص315.

([35]) السهروردي، عوارف المعارف ، ص211؛ عبد الهادي محبوبة ، نظام الملك الطوسي ، الدار المصرية اللبنانية 1999، ص154.

([36]) ابن رشد الحفيد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ،المكتب الثقافي السعودي بالمغرب، 1417ه، ص231؛ مريزن سعيد مريزن، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي

مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1987، ص112؛ عبد الباسط أحمد علي، الأدب الصوفي والإسلام، دار الرسالة، مصر 1985، ص67.

([37]) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ، تقديم و تعليق بدوي طبانة، مطبعة كرباطة فوترا أندونيسيا1958، ص209؛ إحسان إلهي ظهير،دراسات في التصوف، مطبعة إدارة ترجمان السنة لاهور 1431ه، ص98، 99

([38]) ابن الجوزي ، المنتظم ،ج5،ص228 .

([39]) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص32؛ عبد الباسط علي، مرجع سابق ، ص110.

([40]) النوبختي، فرق الشيعة ،ص143 ؛ عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية، ص65.

([41]) الشهرستاني ، الفصل في الملل والنحل، المطبعة الأميرية القاهرة 1320ه ، ص145؛ عبد الرحمن بدوي ،مذاهب الإسلاميين ،ص309.

([42]) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي بغداد ، 1953،ص65.

([43]) الأصبهاني ،حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي ، بيروت ،1967 ،ص143.

([44]) البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة للطباعة بيروت، 1973، ص178.

([45]) صباح الشيخلي، الأصناف والمهن في العصر العباسي،الوراق للطبع والنشر بغداد 2010 ، ص312، 322

([46]) إحسان إلهي ظهير، دراسات في التصوف، ص143 ؛ عبد العظيم رضاي ، تاريخ دة هزار رسالة إيران، نشر دار إقبال، طهران ، 1994،ص68.

([47]) ابن خلدون، المقدمة ، ص310.

([48]) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة 1964، ص68.

([49]) الجاحظ، الحيوان ، ص72؛ أبو الفضل الميداني ، مجمع الأمثال، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة 1955، ص112.

([50]) أبي سعد السمعاني،التحبير في المعجم الكبير ، مكتبة العلوم والحكمة ، الموصل 1988، ص320 ؛ نظامي عروضي السمرقندي ،جهار مقالة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة،1949، ص143 .

([51]) حمد الله مستوفي، نزهة القلوب، ترجمة صالح محمد صالح، الدار المصرية اللبنانية للكتاب، 1999، ص45.

([52]) ناصر الدين الكرماني، نسائم الأسحار من لطائف الأخبار، تصحيح وتعليق مير جلال الدين أرموي، اصدارات جامعة طهران د. ت ، ص79؛ مؤيد الدولة الجويني، عتبة الكتبة ، تصحيح و إتمام محمد قزويني وعباس إقبال ،استانبول 1329 ، ص94 .

([53]) كيكاوس ، قابوس نامة ، ترجمة محمد صادق نشأت وأمين عبد المجيد ، دار الشروق القاهرة، 2007، ص66؛ اربري، مرجع سابق ، ص 76.

([54]) الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الإبياري وحسن الصيرفي ، دار الطلائع ، القاهرة 1992، ج3، ص423.

([55]) عبد الهادي محبوبة ، مرجع سابق ، ص213؛ عبد الله رازي ، تاريخ كامل إيران نشر دار إقبال طهران 1993 ، ص88.

([56]) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، مطبعة الهلال ، القاهرة 1927 ، ص87؛ علي دشتي ، أفاق أدب سعدي ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة،1993 ، ص154.

([57]) أبو سعيد الكرديزي، زين الأخبار ، تصحيح محمد ناظم، ترجمة عفاف زيدان، برلين 1928، ص134؛ رضا زاده شفق، تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى هنداوي، دار الفكر العربي بيروت، 1947، ص109.

([58]) ابن الأثير، الكامل ، ج9،ص165 ؛ ابن الجوزي : المنتظم ،ج5،ص342.

([59]) ابن الأثير ، الكامل ، ج9 ، ص198 ؛ إحسان إلهي ظهير،مرجع سابق ، ص165.

([60]) محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية الرياض 1964، ص115؛ ناجي معروف،المدارس الشرابية، ببغداد و واسط ومكة، نشر جامعة بغداد 1977 ، ص129.

([61]) السمعاني، التحبير، ،ص276 .

([62]) الكرماني، مصدر سابق ، ص160 ؛ النرشخي، تاريخ بخارى ، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مشير الطرازي ، دار المعارف القاهرة 1385 ، ص309.

([63]) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، دار الكتاب العربي بيروت 1967، ص199.

([64]) ابن البلخي، فارس نامه، ترجمة وتحقيق يوسف هادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة 1999، ص167.

([65]) التنوخي ، المستجاد من فعلات الأجواد ، نشر محمد كرد علي ، دمشق 1970 ، ص59.

([66]) القشيري، الرسالة القشيرية ،ص136؛ الغزالي : مصدر سابق ، ص208.

([67]) الباخرزي، دمية القصر و عصرة أهل العصر ، تقديم علي إبراهيم جواد ، دار الكتب العلمية بيروت، 2008، ص178.